

هوليوود الليبرالية تعلن الحرب على المؤسسة

«المياه الداكنة» و«التقرير» فيلمان من معطف سينمائي واحد



المحامي الذي يتحدى المؤسسة في «المياه الداكنة»

لنا الأسطر التي تظهر على الشاشة، إن هذه المادة توجد في دماء جميع الكائنات، وتحديدا 99 في المئة من البشر على ظهر كوكب الأرض، وإنه بفضل ما قام به بيلوت، أصبحت هناك حركات متعددة مناهضة لاستخدام هذه المادة و 600 مادة أخرى مشتقة منها، وكلها لا تخضع لقوانين تنظم دواعي استخدامها.

أما في فيلم «التقرير» فبينما يتعد «جونز» في النهاية حزيناً محبطاً، عن مبنى الكابيتول هيل، تقول لنا الكلمات التي تظهر على الشاشة إنه لم تتم إدانة أي ضابط من ضباط وكالة المخابرات المركزية بسبب التجاوزات التي أوردتها التقرير. بل إن الكثيرين منهم قد تمت ترقيتهم. وأصبح أحدهم رئيساً للوكالة. لا شك في أن براعة الممثل الرئيسي في كلا الفيلم، من أهم العناصر التي تدفع إلى الاستمتاع بالمشاهدة. في «المياه الداكنة» يتعامل الممثل مارك روفالو مع شخصية روبرت بيلوت التي يؤديها، من خلال أداء هادئ واثق ورسوٍ يخفي أكثر مما يظهر، لكنه ينشي بصاعد شعوره التدريجي بالقلق والاضطراب ثم التوتر والإنهيار العصبي، كما نجد انعكاس ما يخوضه من نضال في سبيل القضية التي يؤمن بها بعد أن أدرك أنها لم تعد قضية فردية، على حياته الخاصة، مع زوجته وأبنائه الذين أهملهم طويلاً. أما أن هانساواي في دور الزوجة، فقد أهملها السيناريو إلى حد كبير، ولم تظهر لتؤكد وجودها كمتمثلة موهوبة سوى في المشاهد الأخيرة من الفيلم بعدما تكون قد حسمت أمرها وتفهمت القضية التي يدافع عنها زوجها لتعلن وقوفها إلى جواره.

ولا شك أن آدم درايفر، أجاد كثيرا التعبير عن مثالية شخصية دانييل جونز التي يقوم بها في «التقرير». إنه يتكلم في إيقاع سريع، تتدفق الكلمات من فمه كما لو كانت طلاقات مدفع رشاش، يريد أن يقضي بها على الأعداء، «قتلة النظام»، وأن ثبت أنه سليل جورج واشنطن الذي أرسى فكرة أن لا أحد يعلو فوق القانون، (وتظهر على الشاشة في نهاية الفيلم، عبارة شهيرة له في هذا السياق). إلا أن حماسة جونز التي تتصاعد تدريجياً، يصاحبها بعد ذلك شعور بالإحباط مع إدراكه أنه كان في الحقيقة، يُستخدم كلعبة سياسية محسوبة في أيدي «الكبار»، وأنهم كانوا يعلمون من البداية أن التقرير لن ينشر، وأن المؤسسة ستظل في نهاية المطاف، كما كانت، أي أقوى من الفرد. فالتمرد الفردي لا يفيد. وربما يكون هذا هو الدرس الذي نتعلمه من الفيلم.

ويسلط الضوء، منتقلاً من فترة الرئيس بوش الابن إلى الرئيس أوباما، مستخدماً أحياناً لقطات الأرشيف من أحاديث نائب الرئيس ديك تشيني مثلاً، ويعرج على الكشف عن وقائع التعذيب في معتقل أبوغريب بالعراق، بقصد تذكير المشاهد بما يعرفه مسبقاً ولكن في قالب درامي مثير.

محاولة البطلين

في «المياه الداكنة» يحصل المحامي روبرت بيلوت، على تعويض ضخم لضحايا الشركة من أهالي البلدة، لكن الشركة نفسها تستمر في استخدام نفس المادة المسماة في صناعة الأواني وأسطح الموقد والثلاجات وغيرها من الأدوات المنزلية المستخدمة في المنازل في شتى أرجاء العالم. وفي نهاية الفيلم تقول

يشعر -كما يقال في الفيلم- بأنه مدين لوكالة المخابرات المركزية، بحصوله على فترة رئاسية ثانية ولا يريد بالتالي أن يصطدم معها. لكن السيدة ديان توافق في نهاية المطاف على إذاعة التقرير على أعضاء الكونغرس. ولكن من الذي سيدفع الثمن؟

يتشابه الفيلم إلى حد كبير يقرب من التطابق في نمط البناء وأسلوب السرد، فكلاهما يعتمد على بطل، أبيض، ينتمي للطبقة الوسطى الأميركية، يمكن للمشاهد الأميركي التماثل معه. وهذا هو البطل الأميركي، الليبرالي، الذي يتحلل بالقيم الأخلاقية والمثل العليا، ويصبح تدريجياً كلما اكتشف مدى «فساد المؤسسة»، وتوغل داخل ملفاتها وأسرارها، أكثر تمسكاً بالماضي قداماً حتى نهاية الشوط مهما كلفه الأمر، ومهما كان الثمن الذي يتعين عليه أن يدفعه. وهو هنا بطل «أخلاقي» مثالي، وليس ثورياً، فكل ما يسعى إليه هو مجرد «الكشف» والإصلاح، وليس التغيير الجذري. وهو يعمل من داخل نفس المؤسسة، يؤمن بقيمتها، وبضرورة «ترشيدها» و«تقويمها».

ثانياً، يستند الفيلم على البناء المتعرج أو غير الخطي، الذي يظل ينتقل بين الماضي والحاضر، يستدعي الكثير من الصور والوقائع التي تصطبغ بالوان مميزة، تتناقض مع الألوان التي تميز الصور التي تدور في الزمن المضارع. وهي حيلة تقليدية قديمة.

رسالة سياسية

الفيلمان من أفلام الرسالة السياسية التي تعكس رؤية هوليوود الليبرالية، ويعتمد كلاهما في توصيل رسالتهما، على قدر كبير من الالتزام بالوقائع الحقيقية، في صياغة أقرب إلى «الدوكيو-دراما» أو «الدراما التسجيلية»، التي تسرد وتشرح وتعمد كثيراً على الحوار. في «المياه الداكنة» يبدو الحوار كما لو كان درسا أو محاضرة، لتبسيط وشرح الكثير من المعلومات العلمية للمشاهد عبر شروح تبدو مربكة أحياناً وليس بوسع المشاهد العادي استيعابها. في «التقرير»، ينتقل الفيلم عبر المونتاج بين فترة وأخرى، لكي يعرض صوراً تدعم ما يعثر عليه بطل الفيلم في الوثائق التي يبحث فيها، وذلك أيضاً بشكل «تعليمي» يشرح ويفسر

وصولاً إلى فيلمنا التالي الأحدث «التقرير». والغالبية العظمى من هذه الأفلام تستند إلى وقائع حقيقية.

البحث عن الحقيقة

في «التقرير» يقوم الممثل آدم درايفر بدور «دانييل جونز» الباحث لدى لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي. وهو يكلف في 2009 بقيادة فريق للتحقيق الحقائق ثم إعداد تقرير شامل بتكليف من رئيسة اللجنة السيناتورية ديان فينشتاين (أنيت بينينغ) بشأن ما يمكن أن يكون قد وقع من تجاوزات تتنافى مع القانون الأميركي الذي ينظم المخابرات المركزية، بعد هجمات 11 سبتمبر 2001.

يستغرق البحث والتتقيب خمس سنوات كاملة، يخصص خلالها جونز وفريقه، أكثر من ستة ملايين وثيقة، ويستمع إلى الكثير من الشهادات ليس من بينها بالطبع شهادات ضباط المخابرات الذين قاموا كما سيكتشف، بإتلاف شرائط كانوا قد سجلوا عليها وقائع الاستجواب الذي كان يجري تحت التعذيب، ويتهي مع فريقه من كتابة تقريره الذي يقع في 7 آلاف صفحة، كاشفاً الكثير عن أساليب التعذيب التي مارسها ضباط المخابرات المركزية على عدد كبير من الذين تم اعتقالهم في أفغانستان وغيرها، وثبت أن معظمهم لم يكن يتعين من الأصل اعتقاله واستجوابه عما لا يعلم، ثم كيف ثبت أن هذه التجاوزات التي يعرضها الفيلم بالتفصيل، من الإغراق بالماء والإيذاء بالإعدام، والضرب على الأعضاء التناسلية، وإدخال آلة ضخمة في فتحة الشرج، والحبس في غرفة ضيقة مع تشغيل الموسيقى الصاخبة العالية طوال الليل والنهار للحرمان من النوم، لم تفلح في تجنب الولايات المتحدة هجمات أخرى كما تزعم المخابرات المركزية الآن بعد أن أصبحت تجاوزاتها تحت الضوء.

يكشف دانييل جونز أيضاً دور الذين يُطلق عليهم «المقاولون»، وهم المتعاونون من الخارج الذين يتكثرون وسائل خاصة في التعذيب، من بينهم طبيب نفساني، كما يكتشف وجود «السجون السرية» خارج الولايات المتحدة، وعمليات النقل السرية التي وقعت، وكيف أن الوسائل التي استخدمتها المخابرات المركزية في التحقيقات، فشلت في دفع من تعرضوا للتعذيب والاستجواب في الإلقاء بأي معلومات صحيحة، وهو ما اعترفت به المخابرات نفسها في تقاريرها السرية، ثم أكثر واخفت التقارير عن جونز حينما جاء وقت الجد. أما رئيسة جونز «ديان فينشتاين» -التي تقوم بدورها أنيت بينينغ ببراعة كبيرة- فسوف تطلب منه اختصار التقرير إلى 400 صفحة فقط، وعندما تحدث إلى الرئيس أوباما عن التقرير، يبدو راعياً في إغفاله تماماً، فهو

فيلمان خرجا حديثاً من معطف السينما الأميركية، يشتركان في سمات واحدة، أهمها الهاجس السياسي، تعرية «المؤسسة»، وفضح الانتهاكات التي تتعلق بحياة المواطنين داخل الولايات المتحدة وخارجها، كما يجمع بينهما، استنادهما إلى أحداث وشخصيات حقيقية.



الفيلم الأول هو «المياه الداكنة» Dark Waters للمخرج تود هاينز الذي سبق أن أتحفنا بفيلمه الشهير «كارول» الذي قامت ببطولته كيت بلانشيت وروننمارا، والفيلم الثاني هو «التقرير» The Report أول أفلام كاتب السيناريو المعروف سكوت ز. بيرنز الذي كتب السيناريو لعدد من أفلام المخرج ستيفن سودربرج هي «المُرشد» و«العدوى» و«أعراض جانبية» و«المغسلة».

يتميز الفيلمان بالخروج عن السائد المألوف، والاشتباك مع المؤسسة الاقتصادية-السياسية، وتعرية التستر الرسمي على التجاوزات التي تضر بسلامة المجتمع.

يعتمد سيناريو فيلم «المياه الداكنة» على مقال نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» في 2016، بعنوان «المحامي الذي أصبح كابوساً عالمياً لشركة ديبونت». هذا المحامي هو روبرت بيلوت (الذي يقوم بدوره في الفيلم مارك روفالو). وهو محام طيب القلب، ورب أسرة، كان ضمن فريق العمل في شركة الشؤون القانونية التي تعمل لحساب شركة «ديبونت» للمواد الكيميائية، التي أسسها في واشنطن في القرن التاسع عشر، رجل فرنسي، ثم تشعبت وتفرعت إلى شركات عديدة وأصبحت أكبر احتكاراً لإنتاج منتجات ومشتقات الكيميائية في العالم، وفي 2013 فقط، حققت الشركة أرباحاً قاربت 5 مليارات دولار.

ماهي مشكلة «ديبونت» إذن؟ أو تحديداً ما مشكلتها مع هذا المحامي البسيط الذي يعمل لحسابها ويبدو شديد الإخلاص لها؟ كيف أصبح خصماً ينازلها ويسبب لها الأرق والصداع ويكلفها الكثير من الوقت والجهد والمال؟

رحلة البحث

يبدأ المحامي البحث والتتقيب، وتدرجياً يجد نفسه على الجانب الآخر، أي يواجه شركته نفسها ويتحداها أصنام القضاء بل ويكسب إلى جانبه أيضاً رئيسه المباشر في شركة الشؤون القانونية. وهو يعود خلال بحثه أربعين عاماً إلى الوراء، بعد أن يكتشف وجود اسم مادة كيميائية غامضة في وثائق الشركة التي يحصل عليها بأمر القضاء، سيوضح له أن الشركة تستخدمها بانتظام منذ الأربعينات، وهي تعلم جيداً أنها مادة سامة قاتلة.

ومع ذلك استمرت في استخدامها على نطاق واسع بسبب رخص تكاليف إنتاجها. وينجح المحامي المثالي الذي لا ينصاع للتهديدات، في إدانة الشركة، والتحذير من ممارساتها علانية تماماً مثل أي «نافع للصفارة» عرفناه على مدار أكثر من 40 عاماً من تاريخ السينما المعاصرة، منذ فيلم «كل رجال الرئيس» ثم «أعراض صينية» و«سليكوود» و«إبرين بروكوفيتش» و«أسرار رسمية» تحت الضوء.

يستند الفيلمان على البناء المتعرج أو غير الخطي، الذي يظل ينتقل بين الماضي والحاضر، يستدعي الكثير من الصور والوقائع التي تصطبغ بألوان مميزة، تتناقض مع الألوان التي تميز الصور التي تدور في الزمن المضارع، وهي حيلة تقليدية قديمة.

روبرت بيلوت يلتقي ذات يوم في عام 1998، بمزارع بسيط متقدم في العمر، جاء إلى مكتبه بسبب معرفته بجدة



أنيت بينينغ تألقت في دورها